أختين

مامور فطيمة

مضت سبع سنوات وأميرة تكبر أمام عيني دنيا.. الحياة تذهب بأفكارها والذكرى السيئة تغشاه في خلوتها وتداعبها في كوابيسها والأماني التي بعثرتها الغيرة بدت في أودية المحبة والأخوة وألوان الحزن في خواطر من وراء تلك المتطرفات الحاقدة على أختها رغم أنها تحبها كثيرًا إلا أن عفونة الحقد قد فاحت وتراكمت عند دنيا حين اعتدلت مقادير الكراهية والحقد في عينيها ازدادت حالة البغض والقطيعة رغم شوق ولهفة أختها أميرة.

أصبحت لا تبالي بضمة ما قبل النوم.. كان الليل باردًا و السحب قماشًا أسود اللون تمسكه العواصف.. أحسّت أميرة بالبرد الشديد وهي من دون غطاء، لم تستطع أن تبكي بكاءً طبيعيًا.. خُيّل لها أن أختها قد تضربها واختلج قلبها الصغير، في ميعاد صوت الرعد المخيف أمسكت بالصبر والخوف كلتا يديها لكن خانتها دموعها.. تناديها بصوت منخفض لا تكاد تسمعه ومازالت روحًا خائفة في غفلة أنفاس مختنقة بالبكاء ضمها جناح يكسوه الدفء والخلود، فاستقبلها النوم ليمتزج الاطمئنان والنعاس بقلبها، وما أدركت من أمر ذلك الشعاع الذي يدغدغ نومتها حتى فتحت عيناها ثم ذهبت تغتسل من بقايا النوم وآثاره أخذت بعضًا من قلبها في ابتسامة تبعث به قبلات لوالديها.

انضمت إلى المائدة ونظرها لم يترك ملامح أختها.. اكتفت بمتعة النظر وتذوق خوف تقلباتها بما يختلج نفسها ووخزات الضمير حائرة في أمر

تشتبه ولم تجده في وجهها فلا تدري أن عادت أختها التي تحبها أوانه مجرد حلم زائل أحالها التفكير .. فراشة مكسورة الجناح..

ما لبث الوقت أن دقت عقاربه الحادية عشر.. كانت دنيا قد أنهت كل الأعمال طُلبت من أختها .. أن تحضر هذه القائمة من البقال.. مقدمة الورقة في كفة يد أميرة من دون أن تضع عينيها في كلمة واحدة فردت بذبذبة صادقة لكنها بعيدة، وبينهما طريق معبد بالسيارات .. أنا لم أذهب إليه وحدي.

فقاطعتها بغضب أناني ضرب خلوة قلبها الصغير:

- لا اذهبي وأحضري لي القائمة.. أنت لست صغيرة حتى تخافي.

و تدفعها إلى الباب ثم نزعت لها القبعة الصوفية:

- الجو ليس باردًا كثيرًا أسرعي سأراقبك.

خرجت أميرة بخطوات كبيرة وأخرى صغيرة وتلتفت إلى الوراء تارة تستأذن مشيتها، ودنيا تنظر لها بقلة اكتراث، فتزمجر بيدها أن تسرع شعرت أن ثقلا قد تلاشى فأعفت ناظريها عنها وعن اهتمامها بعد أن غابت عنها . مرت أميرة بحذر في الطريق المليء بالسيارات، حتى توقفت.

وصلت للجهة الأخرى من الطريق وهي تصفق بأرجلها على الأرض تنثر فرحتها، لقد وصلت إلى محل البقال لكن وجدته مغلقًا بستائر حديدية مليئة برسومات مخدوشة خابت أسارير آمالها في العودة بالقائمة حتى لا تغضب أختها ثم خطرت في بالها فكرة أن تطرق باب منزله في الجهة الخلفية حتى يفتح المحل مشت في طريق الجهة الخلفية والأشواك ترصدها من كل جانب، فتنتهي من عبور ذلك فيطعنها الشوك في

سروالها وهي تحاول انتزاعه سمعت نباح الكلب في اتجاهها صرخت بأعلى صوتها ودفعت نفسها عن الشوك حتى أضاعت فردة من صندلها أسقطتها صخرة، كانت أمامها حتى جرح إصبعها و بدأت تبكي وهي تسحب قدمها بسرعة ورجلها تقطر دما ومازال الكلب يلاحقها ينبح باستمرار جرت في سهل شبه مرتفع متعرجة إلى الباب المفتوح تتقد بالحسرة والخيبة، يسيل على خديها أبجديات البكاء حتى تغذي حزنها فتفلت من الكلب داخلة بيت حارس خزان الماء فسقطت على الباب تقفله مرتدية البكاء في ثوب كلام ضيق خانق ذي شهقات متتالية تصدر بين شفتيها حرفان يكاد صدى البيت الفارغ يجمعهم:

- ماما ...ماما..ماما

مضت مدة تعودت على الألم وشدته بعد شعورها أن جدران البيت الخالي لا تكترث لها والوحدة التي أوقفت دموعها بعضها قد صقل في خديها بواخزات كالإبر فتأكلها بأصابعها الخمسة حتى يبتلع وخز من على خديها وزحفت تاركة الطريق لأي سند أو ملجأ خائفة من عودة الألم الشديد ظفرت بقطعة كبيرة من قماش متبلد بالألوان تلفه بأناملها الصغيرة بعبث لا يخلو من الحذر تجذبها عيناها إلى البعد الأبيض بين الجدران العمياء التي كان سوادها سخامي ينتشر في مكان أو يرقط في آخر بصور لحديث نبوي وآخرًا لأسماء الله الحسنى هكذا كان البيت كله يعيش في مجري علب كرتون تحوي مخدرات.

كف نباح الكلب عن أذنيها فأحست بالأمان، واتجهت إلى الباب تفتحه لكن أبى أن يفتح، فدغدغتها نشوة الأنين والبكاء من شدة الذعر حتى اختلج ضوء القمر نافذة البيت تخاذلت أطرافها من التعب، وتسلل النعاس في عينيها، تكاد تكون رؤيتها كوابيس مزعجة حتى نامت لم

تمض مدة حتى اغتصب نومها أصوات غريبة عنها ومخيفة ذات ملامح غليظة رمقت بعينيها الخوف وأجهشت بالبكاء، فضم الحارس يده على فمها بقوة يكاد التنفس ينقطع مرتبكًا يتحدث:

- يجب أن نقتلها حتى لا يكتشفوا أمرنا.

قاطعه زعيم العصابة:

- هل جننت؟.. يا لك من غبي.. كما قلت سأبيعها إلى صديقي الذي يتاجر بالأطفال.. سنعقد صفقة دسمة.. نضعها عند عمتي التي تقطن خارج حدود هذه الدولة.

فرد عليه أحدهم:

- ستشي بنا.

- لا سأخرسها بالمال فهي تحب الدنانير كثيرًا.

اقترب بضع خطوات في اتجاهها، وجلس عندها بهدوء قائلا:

- ستغلقين فمك طوال الرحلة وأي حركة ستقضي عليك.

ثم سخر من نفسه لأنه بات لطيفًا معها فبصق قرب رجليها، قرر إطفاء الضوء غير اللازم وأخرج علبة السجائر وأشعل واحدة وبالفعل برد الفجر الشاحب ونفحات التبغ ووقف يرمق أصحابه أن يسرعوا ثم دفع الباب برجليه حتى يتسع لخطواته ينفخ ما بسيجارته في الهواء، حملها الحارس مقيدة بصمتها البائس تلقي بعينيها دموع الخيبة امتزجت بهدوء الليل ولونه القاتم ووضعها في جوف المقعد الأخير للسيارة وأغلق الباب، حينها انفجرت أصوات كانت مكتومة قبلًا في

ذالك الوق.. تطاير الرصاص بين المهربين والشرطة.

كانت دنيا تقترب من باب السيارة تفتحه بعينين مضطربتين أخذت أختها ملمة عليها بقوة تكتم صوتها بالبكاء ثم وجهت نظرها نحو طريق الهروب حتى أمسكها خفق قوي خانق .. خطوات تكسر الأعشاب على بعضها سكنت في محلها كجثة متصلبة، تضم أميرة كلتا يديها كلما ازدادت الخطوات اقترابًا.. انكمش جسمها عاجزة عن الحراك متمسكة بأختها.. إلتصق نظرها بنظر أميرة ورفعت كلتا يديها أن تقف حتى تدفعها للهرب من دون أن تفكر في العواقب.. أحسّا أن قلبيهما قد توقف حين سمعت صوت اسميهما متكررًا عدة مرات متتابعًا.. استدارا في لحظة وقد وجد قلوبيهما سندا واهنًا في الهوة التي كان ما يزال يهوي فيها فاستعادا لوني وجهيهما الطبيعي وقد غشاهما الابتسام والحضن الدافئ لوالديهما مائلًا على جنبه إلى البسطة في ثنايا المعطف المتدلي كانت دموعها مقلوبة بالحزن كما في المرآة وكما كانت أميرة تعلو شيئا فشيئا تماما كما الذكريات التي عاشاها و كان هذا كله انقلابا خفيا صحوة لها.